خلل الوظيفة الأسرية

الاختلال الوظيفي الزواجي، الانفصال والطلاق

أ.د. عبد الرحمان ابراهيم – الطب النفسي – سوريا، روسيا
ar.i@laposte.net - dr.abd.ibrahim@gmail.com

مدخل: إن الشدات التي تتعرض لها العلاقة الزوجية عديدة ومختلفة، لذلك فإن استمرار وازدهار زواج معين يعتمد على الطريقة التي يقيس فيها أحد أو كلا الزوجين الحاجات الفردية الشخصية تجاه متطلبات الحياة الزوجية.

يمكن القول إن الشروط الحالية، الاجتماعية والثقافية والمعتقدات تلعب دورا هاما في النفور الزواجي الحاصل، وعادة يكون العامل الغالب هو عدم الرغبة بتجاوز الاستقلال الفردي والتسامح الذاتي، أكثر مما تلعبه عوامل اجتماعية جديدة متعددة.

ولا يعتبر دقيقاً القول بعدم وجود الزواج المضطرب في العصور والحضارات السابقة. وفقط نحتاج الى براهين من أخبار وسوابق لا تحصى لنؤكد وجود اضطرابات زواجية.. منذ أن وجد الزواج، ولنرى بعض الأمثلة:

هنري ابسن[1] Henrik Ibsen: الكاتب المسرحي النرويجي الشهير **هنري ابسن**، كان عنده سمعة لا يستحقها في عقل الشعب كمؤلف للدراما الاجتماعية والتي فقدت لياقتها مثل: بيت الدمية، الاشباح، عدو الشعب..

كانت مسرحياته تتناول ظاهرياً مواضيع معاصرة لذلك الزمن مثل تحرير المرأة، الأمراض الزهرية، والنزاعات بين الأخلاقيات الشعبية والخاصة.

لكن عبقرية **ابسن** *Ibsen* كمؤلف مسرحي تجاوزت حتى هذا، فقد كان ثوريا حقيقياً قادرا على اختراق أعماق النفس البشرية.. ففي مسرحيته (**هيدا كابلر**) يتحدث عن أمرأة ممتلئة بالفخر والانتقام، متحكمة بزوجها **تيسمان** *Tesman* وكأنه لعبة في يدها. وتماماً مثلما أعطت (**بيت الدمية**) مظهراً ساخراً للزواج كذلك فعلت (**هيدا كابلر**)، عدا عن كون الزوج هنا هو اللعبة.

وفي مسرحية عالمية أخرى (**روسمر شولم** *Rosmersholm*) يذهب **هنري ابسن** *Henrik Ibsen* في استقصائه أبعد من القوى اللاواعية، فنجد (**بيكاويست**) شابة ذكية ومتحررة فكرياً، تعمل في منزل (**جوهانز روسمر**)، وبسبب شوقها الذي يصعب عليها التحكم به نحو (**روسمر**)، دفعت زوجته العاقر (**بياتا**) للانتحار.

ولفترة بسيطة كانت (**بيكاويست**) هي و(**روسمر**) سعيدان، ثم بدأت تعلم شيئاً فشيئاً أن الرجل الذي رفعها كفتاة شابة، والتي أصبحت عشيقته هو والدها الحقيقي.

فتحت وطأة الشعور بالذنب والاجرام، وبأنها قامت بدور مشابه لدور أوديب مع والدها وزوجته، وهكذا (**بيكاويست**) أقنعت (**روسمر**) بذنبها الشديد، وأن يدخلا معا في عمل انتحاري. وتنتهي المسرحية بقفزهما سوية (**بيكاويست وروسمر**) من أعلى جسر، وهو الذي رمت الزوجة (**بياتا**) نفسها منه سابقاً.

أوغست سترندبرغ *August Strindberg*: كاتب سويدي صوّر سيرته الذاتية من خلال مسرحية (**الأب**) والتي تعكس المعاناة **الزورية** *paranoia* لكاتبها.

من خلال المعلومات المتوفرة لدي واطلاعي على ماستطعت من الادب العربي والعالمي، يمكنني القول لم أجد عملا أدبيا أو مسرحية تعادل مسرحية (**الأب**) **لأوغست سترندبرغ** *August Strindberg* في اظهار الكراهية القاسية للنساء وكل شيء انثوي.

ويمكن أن تلخص القصة باختصار شديد، فالكابتن انسان ملحد يفكر بشكل حر، وهو بنفس الوقت عامل مقبرة وعالم. كان زواجه من زوجته (**لورا**) بارداً عاطفياً.

وعندما حاول الكابتن تثقيف ابنته (**برتا**) كمفكرة حرّة مثله، قام صراع بين الزوجين.

قامت (**لورا**) بزرع بذور الشك في نفسه عن أبوّته الحقيقية لابنتيهما، دافعة به بشكل أعمق وإلى غضب وغيرة وشك زوري، حتى أصبح عنيفاً في النهاية، ثم اقتيد الى مشفى الأمراض العقلية

في نهاية المسرحية يستلقي الكابتن بدون مساعدة أو أمل، وعندها تسأله زوجته (**لورا**) فيما اذا كان يعتقد بأنها عدوّته، فأجابها: "نعم، أعتقد ان كل النساء عدواتي، أمي لم تكن تريدني أن آتي إلى العالم، لأن هذا يسبب لها ألما، كانت عدوتي، ولقد مزقت كيس الحمل لذلك ولدت غير مكتمل. وأختي كانت عدوتي عندما جعلتني أذعن لها. والمرأة الأولى التي أخذتها بين ذراعي كانت عدوتي فقد أعطتني عشر سنوات من المرض رداً على الحب الذي أعطيته لها، وعندما كان على ابنتي الاختيار بينك وبيني، أصبحت عدوتي، وأنتِ زوجتي العدوة القاتلة، لأنكِ لم تتركيني الاّ وقد أنهيتِ كل حياة بقيت مني..".

- هنري ابسن *Henrik Ibsen* ولدعام 1828 وتوفي في 23 أيار 1906 وهو كاتب مسرحي نرويجي، يعد من كبار كتاب المسرح في العالم كما يعتبر من أهم رواد الحداثة في القرن العشرين.. أهم أعماله: (ندم على حياة محطمة، الأشباح، عدو الشعب، بيت الدمية).

1 – أسباب خلل الزواج

1.1 - العوامل داخل النفسية

قد يضع المرء لائحة طويلة من أسباب خلل الزواج مثل: (الخلل في التعامل، عدم الارتياح الجنسي، تداخل الأهل، أعباء الأولاد، الصراعات على الأدوار والآمال المختلفة،...).

على كل حال هذه الأمور ليست سوى أعراض للمشكلات الأساس التي تأتي خلف كل فشل في إنشاء علاقة ودّية ناجحة، وإن الميل نحو الصراعات حول التدابير والتسويغات الذاتية هو أكثر بكثير من حول التفاهم المتبادل والتعمق في العلاقة.

ولنتأمل أولاً بعض التأثيرات التطورية التي تتدخل بحسن العلاقة بين الزوجين، وعلينا أن نهتم بالأهمية الهائلة للعلاقات الأولى مع الأشقاء والأهل. فالحب والكراهية للأهل والأشقاء عوامل شديدة التأثير في التطور الإنساني، وقد ذُكِرَت في العديد من القصائد والروايات والقصص والمقالات والمسرحيات عبر التاريخ، فالصراعات الباكره مع الأهل عوامل هامة للصعوبات في علاقات الراشدين المتأخرة وتتجلى بوضوح خاصة في الزواج.

لكن من الأهمية بمكان، من خلال تجاربنا أيضاً، للعلاقة مع الاشقاء، وفي الحقيقة قد تكون الصراعات الأخوية الأكثر جاهزية ومطاوعة للعلاج عند المريض.

وكثيراً ما صادفنا من خلال خبرتنا السريرية الرجل فعلاً يتعامل مع زوجته كما لو أنها أمه، ولكن قد يعاملها كما لو أنها أخت محبوبة أو مكروهة أيضاً.

والأطفال الذين ليس عندهم إخوة أو أخوات لا يتجنبون الصراعات لأن غياب الأشقاء له دور متزايد على العواطف الوالدية، وفي الحقيقة اقترحت بعض الدراسات أن الأولاد الوحيدين قد يعانون من صعوبات في الزواج أكثر من الأفراد الذين نشؤوا مع أشقاء.

ولاحقاً عندما يصبح الطفل مراهقاً فإنه يجسد من جديد وهم الحب الرومانسي (وقد ميز هذا النوع من الحب شعراء الجاهلية عند العرب وأدباء القرون الوسطى في أوربا. وإن الشهرة الكبيرة للحب الرومانسي التي ذكرت في القصائد والأغاني والقصص تصف عادة أشواق محبين غير متاح كل منهما للآخر).

ولذلك فمن النادر أن تحدث رابطة رومانسية، وإن حدثت فلم يكن عليها أن تواجه الأحداث اليومية للحياة.

نحن كلنا معتادون على أفكار المراهقين باختراق النجوم، بكونهم فرسان يرتدون دروعاً براقة ويأتون على أحصنة بيضاء, وبكونهم العاشقين الأطهار والأدباء المبدعين، والعلماء الخارقين الأفذاذ والمحققين للمعجزات،...الخ.

مثل هذه النظرة الرومانسية لا تستطيع فعل الكثير مع ضغوط ومصاعب الحياة اليومية، وهي إحياء رغبات طفلية، مكونة بذلك وهماً بالأمان. والمحبوب لم يّحب كشخص بل فقط كمصدر لكل الرغبات.

وهناك نتائج لا يمكن تجنبها لمثل هذه التوقعات مثل خيبة الأمل والشعور بالمرارة. وحتى لو كان بإمكان شخص ما أن يلبي كل هذه الحاجات، فإن الشريك الآخر الذي يطلب باستمرار سيغضب من اعتماده الكلي على شريكه، وسيُسقِط بعض العداء عليه.

وما الذي يبدو أنه سيكون اقتراحاً مقبولاً هو أن الفشل الزواجي نتيجة الأوهام الرومانسية قد يتضاءل أو حتى يختفي مع ملاحظة الانتشار لدرجة الشيوع في البلاد الأجنبية ومع الأسف تزايد لا فت للنظر أيضا في بلادنا، وهي ظاهرة تزايد الجنس قبل الزواج، والذي لم يدعم بعد حتى في أوربا وأميركا، بدراسات ثابتة ودقيقة علميا وثقافياً وإنسانياً.

وهذا النوع من الوصال الرومانسي يبدو أنه مدفوع بعدد من العوامل النابعة من الرغبة بشريك جنسي ثابت ليبعد الوحدة. ورغم أن نمط الحياة العازفة عن الزواج قد أصبح سائداً ومقبولاً جداً في البلدان الغربية، فكثيراً ما نجد رغبة كبيرة عند المعتمدين على هذا المبدأ بإيجاد مرافقين.

ولذلك فإن الحاجة للحلم والأمل حول موضوع الحب المثالي يبقى، وقد يتقوى من وجهة نظر خبرائهم في الصحة النفسية الحب المثالي عبر العلاقات الجنسية العابرة مع درجات أكبر من الحرية الفردية، ولكن لي تحفظاً شديداً حتى من الناحية العلمية على هذه الأراء التي يطلقها الكثير من الباحثين والخبراء في العلوم النفسية في بلاد الغرب، فهناك مجموعة من الاضطرابات وليس اضطرابا واحدا لدى متعدد العلاقات الجنسية العابرة، أقلها اضطراب في الشخصية، مرورا بالاضطرابات النفسية الجنسية، عدا عن الامراض والاضطرابات النفسية الاخرى، والفقر الوجداني والأخلاقي .

على كل فيما أراه لا يمكن التنبؤ بمستقبل الشباب العربي في هذه الناحية رغم ملاحظات عدة في المجتمع العربي وأهمها تأخر سن الزواج لأسباب ثقافية وعلمية واقتصادية واجتماعية...الخ.

وباختصار شديد، رغم حقيقة أن الحب الرومانسي غالباً ما يعطل المحاكمة النقدية، وأنه ربما يعيد الشريك إلى حالة من الأمان والسعادة الطفولية، ولكن يبدو أن الحب الرومانسي جزء كمالي لثقافتنا لتحقيق اختيار زواجي معتمد على قاعدة "أن الحب الرومانسي تأكيد على مطلب السعادة".

لذلك حتى ولو تزوج الأقران، فإن قدرة كل منهما على إنشاء علاقة زواج مبنية على مساندة حقيقية سيكون معتمداً على درجة السعادة التي يتوقعها كل منهما للآخر.

وبالإضافة لهذه العوامل داخل النفسية فإن هناك عواملاً أخرى تلعب دوراً، فمنحى النمو ليس واحداً لكل فرد، وان نتوقع أن منحى النمو

سيكون متوازياً لكلا الفردين هي فكرة غير واقعية. وحسب رأي (**بيرمان وليف** life & Berman) نجد أن فترة الانتقال من العشرينيات للثلاثينيات والتي تحدث فيها معظم الزيجات مرحلة تهديد كبرى لمعظم الزيجات في الغرب، خاصة التي يعمل فيها الزوجان. فالزوجة تحدث انزياحاً تطورياً من شخصية معتمدة غير آمنة إلى شخصية مستقلة كفوءة وجذابة وتصبح سيدة *Lady*، وهذا قد يسبب تناقضاً واضحاً في معدل نمو الشريكين، ونظام جديد من الخصوصيات في الزواج.

وهنا الزوج دخل بمتاهات المهمات التقليدية بإعالة الأسرة والحفاظ على مستوى متين، بينما الزوجة تصبح محتارة بين الخيارات الجديدة والمقدَّمة لها.

وفي الزيجات التي يعمل فيها واحد فقط، لا يزال الرجل هو الأكثر انخراطاً في الممارسة المهنية، رغم أن هذا قد يتغير مع ارتياد النساء المتزايد للعمل المهني. ويبدو أن التهديد التطوري لاستمرار الزواج - سواء في الزيجات التي يعمل فيها أحد الزوجين فقط، أو الثنائية المهنية (التي يعمل فيها كلا الزوجان) - يزداد بصورة عامة عندما تكون الرغبات والأهواء مقيدة أو غير خاضعة لتغيرات في الذات.

وخلل الزواج في هذا الوقت قد يأخذ عدة مظاهر، ويعتبر بعض الباحثين في الغرب أنه ربما يأخذ خلل الزواج شكل من أشكال الانفجار في العلاقات الجنسية خارج الزوجية كنوع من التعويض عادة عن بعض الحرمان العاطفي. وقد يحدث انسحاب متزايد سواء عاطفي أو جسدي، وقد تحل النزاعات والصراعات مكان الروابط الشعورية والجنسية. والزوجان اللذان كانا مدفوعين بآمال وتوقعات متبادلة أصبحا عدوين لدودين وأصبحت غرفة النوم حقلاً مسلحاً.

2.1 – العوامـــــل بيـــــن الأشخـــــــــاص

يمكن أن يرى الزواج أيضاً كنظام تأثير متبادل، حيث التبادل أساس، ونقص هذا التبادل يؤدي مباشرة للخلل، والنظام بحد ذاته يخلق حاجات يجب أن يحافظ عليها، وأي تغير في أي مركب - مهما كان زهيداً - يخلق تغيراً في كل وجوهه.

وهذه النظرة الأوسع والتي توسع طريقة دراسة الخلل الزواجي، متجاوزة حدود مشاكل الشخصية الفردية لأي من الأعضاء، نادى بها (**بيرمان وليف** life & Berman) عندما لاحظا أن العلاج الزواجي يجب أن لا يرتبط فقط بالصراعات داخل النفسية، ولكن الأكثر أهمية أن يهتم بالمظاهر المحيطية والعائلية والمتعلقة بشريك الحياة.

وهؤلاء الكتاب اعتبروا الحرائك الزوجية موجودة عبر ثلاثة أبعاد هي القوة، المودة، والتضمن - الاستبعاد Inclusion - Exclusion. وكل فرد يرى أنه حاوٍ على آلية حل الصراعات بين:

1- الرغبة في الإسعاد والحاجة الشخصية للسيطرة.
2- الرغبة في التقارب والحاجة إلى الانفصال والبعد.
3- ملكات الزواج, والملكات المرتبطة بالنشاطات والأفراد الخارجين عن مجال الزواج.

بالنسبة لـ (**بيرمان وليف** Berman & Lief) كلما كانت الحلول صارمة وثابتة كلما ازداد خلل الزواج. أما بالنسبة إلى كل من **ساجر** Sager **وكابلاين** Kaplan فقد أخذا نظرة مختلفة بعض الشئ حول العلاقة الزواجية، إذ اعتبراها ضمن مفاهيم "**الحرائك التعاقدية** Contractual Dynamics" وأعلنا أن سوء التناغم الزواجي يبدأ عندما لا يستجاب لحاجات أحد الفردين. والفرد الذي أصيب بخيبة الأمل يختبر الفشل كجهد واع، مقصود وعدائي من الفرد الآخر الذي لا يلبي مفاهيم "**التعاقد الزواجي** Marriage Contract"، رغم أن الفرد الجاني قد يكون غير عالم ماذا تعني هذه المفاهيم أو غير قادر على القيام بها.

وبهذا يصبح كل فرد متحدياً للآخر ويتحول الزواج لمعركة مستمرة لتنفيذ الانتقام ولإنشاء توازن تعويضي. وهي عادة الزيجات التي تحوي على مناطق واسعة من الفشل والمُخاتلة الواعية منذ البداية، بسبب خوف وقلق كل من الزوج والزوجة حول علاقته بالطرف الآخر وفيما إذا كان مقبولاً ومرغوباً به من هذا الطرف الأخر.

في الحقيقة، فقط عندما يتغير أحد الزوجين، ويرغب بعلاقة أكثر مساواة وتماثلاً، يدخل الزواج في الخلل بتعبير سريري. على سبيل المثال، من الصعب جداً أن تتغير أو تنتهي الزيجات السادية - المازوخية. لكن هناك بعض التغيرات الدقيقة على هذه العلاقة التي هي مقاومة أيضاً للتداخل الخارجي.

وطالما أن الفردين يرغب أن يكون والداً أو والدة وعنده طفل يمثله شخصية الشريك الزوجي (وكأنها علاقة بين والد وابنته أو والدة وابنها)، أو أن أحد الفردين يرغب أن يكون مسيطراً والثاني يرغب أن يكون منقاداً، فإن الزواج قد يستمر في توازن لعديد من السنوات، وأبداً لن يصل لمرحلة الخلل.

وعلى الرغم من أننا نفكر بأن الرجل هو السيد، فهذه الفكرة شديدة السذاجة والإغراض، لأن النساء أيضاً يستطعن أن يقمن بهذا الدور، ونرى هذا بشكل خاص في زوجات الكحوليين المزمنين أو العاطلين عن العمل، أو زوجات الحالمين والذين لا يبدو لهم شئ من الواقع مناسباً من أجل مهاراتهم المتفردة. أو النساء المرتابات (من ريبة) بأنفسهن مع الأزواج المعاقين بشدة بشكل إرادي، فهنا في هذه الأمثلة كلها، نرى غالباً المرأة هي السيد.

وبينما يوضح عدم الارتياح الجنسي كسبب لتحطم الزواج، تكون هذه الشكوى كما لاحظنا، عرضاً بسيطاً للصراع المخبّأ وراءه، والذي يتخذ السرير والفراش كقاعدة للنزاع.

بشكل عام يساء غالباً للجنس في الزواج القائم على الصراع، وقد يستعمل من أجل الاستغلال، المعاقبة، المكافأة، أو لتلبية حاجات الشخص النفاسية وحتى الذهانية، وقد يصبح الفرد مصاباً بالعنانة بسبب الصراعات داخل النفسية أو الصعوبات بين الأشخاص، ومن ثم يصبح الجنس كوسيلة للتلاعب بها أو عليه. ويمكن للجنس أن يكتسب صفة الرمزية كلغة لنقل مراسلات بين الأفراد، ولكن في الزواج المختل تكون كل الوسائط سلبية بما فيها الجنس. ويمكن أن يتواجد الخلل الجنسي كمشكلة أولى في الزيجات، ولكن إذا كانت الطاقات، من أجل علاقة مفيدة، فعالة وموجودة، فقد يتوقع أن يتطور الزواج على عدة أصعدة، طالما أن الصعوبة الجنسية تستجيب للمعالجة.

وكثيراً ما يعتقد المعالجون والمرضى أن التحسن في الصعوبات الجنسية سيقود إلى تحسن في العلاقة الزوجية، وهذا خطأ فادح.

فإذا كان الزواج مبنياً على أسس جيدة فإن العلاج الجنسي سيكون له فائدة عظمى، ولكن إذا كان الزواج أصماً فعندها سيقود العلاج الجنسي إلى وضع أسوأ.

ومن المهم أن نبقي في أذهاننا كمعالجين وأخصائيي صحة نفسية فكرة أن هناك كثيراً من الزيجات غير السعيدة والتي تكون فيها الآليات الجنسية جيدة. وهناك زيجات قائمة على الثقة والحب والاحترام المتبادل تستطيع فعلاً أن تبقى، حتى مع وجود اضطراب جنسي عميق كالأذية الشللية في النصف السفلي للجسم على سبيل المثال.

2 - الأولاد

إن الحدث الذي قد يكون له القدرة الكبرى على الإخلال باستقرار العلاقة هو دخول الأولاد. وإن معظم الزيجات تحدث معتمدة على دافع ولادة أطفال بحكم الواجب، ولكن دافع بناء عائلة نادراً ما يكون هو الأساس للزواج. وفي الحقيقة، في السنوات الأخيرة، فإن الزوجين الشابين أصبحا في الكثير من دول الغرب يقرران بشكل متزايد عدم إنجاب الأولاد نهائياً، أما في بلادنا فبدأت تلاحظ ظاهرة تدعوا للانتباه وهي محاولات الأزواج تأخير الإنجاب إلى عدة سنوات.

إن الدوافع التي تأتي خلف إنجاب الأولاد معقدة جداً، وتدخل كاستجابة للضغوط الخارجية أو الحاجات الداخلية التي قد تكون ملاحظة فقط بشكل مبهم أو تكون خارج حدود الوعي تماماً. وفي كل حدث فإن القادم الجديد يغير النظام ويتطلب من الأهل إعادة بناء علاقتهما وإعادة البناء هذه، قد يكون لها تأثير مكافئ معوّض ومقوّي للعلاقة، ولكن قد يؤدي أحياناً إلى تحطم وتدمير العلاقة.

إذاً: مهما كانت النظرة التي نأخذها للزواج، سواء بتعابير داخل نفسية أو بين الأشخاص، أو كلاهما، فهذه الشراكة أو النظام الهش هو الآن في خطر بسبب دخول مجموعة جديدة من المتطلبات عليه. وإن انتقال الانتباه نحو الطفل يخلق فرصة تغيير وتخفيف للصراعات القائمة، ولكن قد يخلق أيضاً فرصة لصراعات جديدة حول مواضيع القوة والحكم، وفرصة لبناء فعاليات مبعّدة ومنفرة. وإن الاعتبارات الشعبية تناقض ما أوضحته الدراسات العائلية والتي بينت باستمرار بأن الزيجات الميالة للصراع لا تتحسن بوجود الأولاد، بل على العكس، اذ يصبح الأولاد كأنهم دمى تستعمل بيد أحد الزوجين ضد الأخر.

3 – العوامـــــل الاجتماعيـــــة والثقافيـــــــة

من الضروري الآن أن أتحدث عن نحو تأثير المعايير الثقافية والاجتماعية بعد أن تحدثت عن كل من دور العوامل داخل النفســية والعوامــل بــين الأشخاص.

يقترح J.R.Udry في كتابه **"المحتوى الاجتماعي"** أن أربعة أنظمة أساسية تلعب دوراً في الزواج وهي:

1. التقليد الديني .
2. المساواة الديمقراطية .
3. الفردية .
4. المذهب الدنيوي.

وإن التغيرات الدرامية التي أخذت مكانها بسبب هذه الأنظمة الاعتقادية لم تبدل فقط من التوقعات والمتطلبات التي يعتقد بها المقدمون على الزواج، ولكن أيضاً تصيب توازن الزيجات طويلة الأمد باضطراب. وإن المذهب الدنيوي خاصة (أي إبدال القيم الدينية بقيم اجتماعية) هو الذي يلعب دوراً أكبر بالتلاؤم الزوجي في الغرب عموماً وأميركا خاصة. وإن الزواج المنظور إليه كنظام مقدس محافظ عليه من قبل التقاليد غير المحسوسة، قد تأثرت أهميته في العقود الأخيرة كنتيجة للدنيوية المتزايد في أغلب بلدان العالم.

كتبت العالمة الاجتماعية **(جيسي بيرنارد)** كثيراً عن التلاؤم الزوجي وهي تصّر على وجود نمطين من الزواج: إحداهما خاصته والأخرى خاصتها. وإن اعتقاد **بيرنارد** بأننا نتعامل مع معيار مضاعف من الصحة العقلية والتي تحقق في النساء مساواة التوافق مع التكيف الكافي، فإن احتمال الخلل الزواجي تجربة شائعة لكثير من النساء، واستنتجت **بيرنارد** أن معظم النساء يقبلن بالضغط الزواجي طالما الرفقة الاجتماعية متوفرة بأدنى حدودها من قبل أزواجهن. على كل حال فإن هذا النهوض المقترح للنساء قد يزيد من الخلل من وجهة نظر الزوج، لأن للرجال أيضاً معاييرهم الاجتماعية المستبطنة، فإذا كان رأي الزوج في المرأة المرغوبة هو زوجة مثقفة واجتماعية لتقوم بالتزاماتها من تعاطف ومنافسة في نفس الوقت، فسيكون فشلها في أداء مستوى عالي من التربية خيبة أمل شديدة له.

وكقوة اجتماعية، فإن الحركة النسائية تؤثر على الزواج بصورة حتمية فالزواج حسب كل الأعراف الاجتماعية عبر التاريخ البشري يميل ليعطي أنماطاً معينة وبخاصة نمطاً معيناً لدور كل جنس، وهذا الدور النمطي هو الذي تعارضه الحركات النسائية في معظم دول العالم الغربية وليس الزواج بالذات، وليست كل النساء مرتاحات لهذا التحرر من هذه النمطية، وأيضاً ليس كل الرجال يهددون بما يسمونه بتحولات في التوازن بين الجنسين. ولكن داخل هذا الجو من الخلل والتناقض، تريد العديد من النساء أن تزيد شرعية الأهواء المضادة لتكوين الأسرة، ولذلك أي فحص لأسباب الثبات، أو عدم الثبات الزواجي يقتضي مجموعة أسئلة تؤخذ بعين الاعتبار، وقد يوحي قرار الزواج المطبق حالياً أكثر من السابق، وأيضاً قرار عدم الإنجاب، قد يوحي بشعور متزايد بالاستقلالية، ليس فقط من أجل عدد من النساء بل وللرجال أيضاً.

لذلك فقد تغيرت في الكثير من المجتمعات الغربية المعاصرة أنماط الزواج التقليدية. ومثالاً فإن الزواج المعاصر يجب أن يكون رفقة من المساواة و السكينة، وليس معركة من أجل القوة والسيطرة أو نمط من العلاقة الأبوية – الطفلية.

ولكن حذار من الخطأ الذي قد يقع فيه الأطباء والمعالجين غير المدربين بشكل كاف من أصحاب وجهة النظر الفردية أو الزوجية والذين يحاولون أن يخلقوا تغيرات جديدة بشكل غير متعقل في المعايير الثقافية وبشكل سريع لمرضى غير مهيأين، فقد يقدموا أذى أكثر من الفائدة المرجوة، وإن الإيحاءات أو الإيعازات الصادرة عنهم إلى النساء السلبيات أو الرجال السلبيين بالتحرر من الزواج ترى كاضطرابات من قبل المعالجين.

لكن على الغالب ليس بالضرورة أن تأتي هذه الآراء من قبل الأطباء الممارسين بل في غالبها – لسوء الحظ – تصدر عن المختصين، وألفت النظر إلى أن آراؤهم وإيعازاتهم قد تكون أكثر تخريباً وتهديماً من أن تكون مساعدة.

4 – الانفصـــــــال والطــــــــــــلاق

كما ذكرّت سابقاً، ليست كل الزيجات المضطربة تقود إلى الانفصال أو الطلاق، فبعض الزيجات التي قد يبدو مختلة للخارج تبقى فعالة حتى نهاية العمر. ولن آخذ بعين الاعتبار هنا التخلي أو الهجر لأنها لا تشكل طريقة ثالثة بنفس معنى الكلمتين السابقتين. وعندما يحدث الهجر فليس هناك أية فرصة للمفاوضة والتقرير بين الزوجين، والبلدان في العالم ذات قوانين الطلاق الضيقة، تسمح بمرحلة من الهجر، حتى يصبح الطلاق الشرعي أو القانوني ممكناً.

إن الانفصال قد يخدم عدة أهداف فهو يسمح ببعض الوقت للمحالة واستكشاف ما لم يقرر. وهو بالنسبة لهؤلاء الذين لا يستطيعون العودة للحالة الفردية، فإنه يقدم إحساساً بالأمان، ومن أجل الأناس النزقين فإنها تحميهم من حدوث إجراء زواجي خلال مرحلة من عدم التأكد وإعادة التلاؤم. والانفصال قد يكون الشكل الوحيد للحل المتوفر أو المقبول في ظروف محددة حيث الضغوط الدينية أو الثقافية أو العائلية ضد الطلاق قوية تماماً.

إن المعلومات المطبوعة عن الانفصال والطلاق بلغت بضعة آلاف من الكتب والابحاث والدراسات في العالم الغربي عدا عن المنشورة على

الشبكة العنكبوتية شبكة الأنترنت، متناولة جميع جوانبها، أما في عالمنا العربي ورغم الجهود التي يبذلها بعض الباحثين والعلماء الا أنها جهود تكاد تكون فردية في معظمها ولم تزل قليلة وفي مراحلها الاولى خاصة على صعيد المجال النفسي..

وعموماً تشير كل المعطيات المتوفرة إلى ازدياد واضح في عدد حالات الطلاق وتسجل أعلى نسبة في الولايات المتحدة خلال العقود الأخيرة.

وفيما يلي أعرض لبعض نتائج الدراسات والاحصائيات المعاصرة في المجتمع الامريكي، إذ يلاحظ أن معدلات نسب الطلاق إلى الزواج تعطينا معلومات هامة فالمعطيات المعاصرة تشير إلى حدوث الطلاق في 33% على الأقل من الزواج الأول، و40 % من حالات الزواج الثاني، وأكثر من 50 % من كل حالات الزواج المتكررة..

وتشير الاحصاءات المعاصرة في أميركا إلى تضاعف معدل الطلاق خلال السنوات 1960 - 1970 وتضاعفها مرة ثانية خلال السنوات 1970 - 1980، وتضاعفها مرتين بين 1980 – 1990، وتضاعفها أكثر من مرتين ونصف بين 1990 – 2000..

كما أن عدد الأطفال الذين انفصل أباؤهم بالطلاق قد تضاعف قرابة الأربع مرات في الــ 50 سنة الأخيرة. وحالياً قرابة المليون ونصف المليون طفل كل عام يعاني من تحطم عائلته في الولايات المتحدة الأميركية وحدها.

كما ازدادت نسبة معدلات الطلاق أيضاً بين الزوجين المتقدمين في السن بعد نمو أطفالهم، فتشير الاحصاءات بين الزوجين اللذين مضى على زواجهما 15 - 19 عاماً ازدادت نسب الطلاق 100% منذ 1960، واللذين مضى على زواجهما أكثر من 20 عاماً بنسبة 55% منذ 1960.

مما سبق يلاحظ إن معدلات الطلاق مرتفعة في الولايات المتحدة أكثر من غيرها، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه يوجد فيها اضطراب زواجي أكثر من غيرها. لأن قوانين الطلاق والتقاليد الاجتماعية تختلف كثيراً. ففي بعض البلدان ــ خاصة في جنوبي أمريكا ــ على سبيل المثال، من الصعب جداً الحصول على الطلاق إلا إذا كان الشخص شديد الثراء، أما في إيطاليا مثلاً فخلال الربع الأخير من القرن الماضي فقط وضع نظام طلاق محافظ بعد سنوات طويلة جداً من النقاشات الحادة والمباحثات والجدال. وحتى في البلاد التي يسهل فيها الحصول على الطلاق، قد يجلب ذلك وصمة عار وفقدان للميزات وهذا واقع نلاحظه في الكثير من المناطق في العالم كالبلاد العربية والهند واليابان.

بالنظر إلى إحصائيات أخرى فإننا نلاحظ أن الطلاق حالياً أعلى منه سابقاً بين الطبقات الاقتصادية الاجتماعية المتدنية في أميركا، إذ أن الطلاق فيها على الأقل ليس امتيازاً بين الأغنياء. ويبدو أن الطلاق فيها أكثر بين الأفراد الذين آباؤهم قد تطلقوا أو انفصلوا، والمعدل أعلى بين الزوجين اللذين تزوجا بين سن الخامسة عشر والتاسعة عشر وفق أحدث الإحصاءات المنشورة.

على كل حال، فكلا الحقائق الإحصائية والملاحظات السريرية تدل على أن معظم الأفراد المطلقين يدخلون في زواجات ثانية وثالثة.

وقد نتساءل كيف يتم التعامل مع معدل الطلاق المتزايد وما هي الحوافز التي تجعل الأفراد يعودون للزواج ثانية، وماذا يؤثر هذا التصرف على الزواج كمظهر اجتماعي؟. ويبدو أن هناك القليل من المنطق لنشك بأن الأساطير والأوهام لها علاقة في الطلاق كما لها علاقة بالزواج، ونجد أن حالات الطلاق تحدث في كل فئات الأعمار، وإذا كانت الصراعات النفاسية لا تزال تعمل فعندها في كل الاحتمالات ستتداخل في إنشاء علاقة جيدة في الزواج الثاني كما فعلت في الأول.

وعلى كل حال فبعض هذه الحاجات النفاسية قد تتغير مع الزمن والنضوج, كما لاحظ بعض الأخصائيين النفسيين ومنهم سيغموند فرويد Sigmund Freud منذ قرابة القرن من الزمن في كتاباتهم العديدة عن إعانات إلى سيكولوجيا الحب، ففي حال استعمال الحنق والغضب في الماضي ضد الشريك الزوجي الأول، فإن الزواج الثاني قد يكون أفضل.

وهناك لحظات مؤكدة يصبح فيها الطلاق خطوة بناءة منمية، والبقاء على علاقة مهدمة دون أمل منها هو دلالة على حديثة مرضية لا عن صحة نفســية وعقلية. ولكن حتى هناك، فإن كلمة تحذير يجب أن تقال لأن الشخص المطلق لا بد أن يظل مواجهاً لقلق الاستقلال، وفقدان العمل المنظم مع الأصدقاء المتزوجين، الاكتئاب،... وحتى أحياناً الشعور بالوحدة والتناقض الشديد نحو الزوج السابق، والإحساس بالفشل والخجل والذنب الموافق لإحداث الألم بالنسبة للأبناء.

5 – أطفـــــــال الطـــــــــلاق

إنّ الانطباع العام لكافة الناس قبل أن يكون انطباعنا السريري كأخصائيين في الصحة النفسية، هو أنه رغم أن الزيجات لم يحافظ عليها من أجل سلامة الأطفال، فإن درجة كبيرة من الإنكار تعمل في الأهل من الجنسين احتراماً لما يعنيه تخيرب عش الزواجية للأطفال، وبالحد الأدنى فإنها تعني انفصالاً عن أحد أعز شخصين مهمين في حياة الطفل، وفقدان لأهم الأوضاع الاجتماعية بالنسبة له. وقد أكدت الدراسات المعاصرة أن الأطفال قد يرتكسون للطلاق باكتئاب متوسط إلى شديد، أو مرض جسدي، أو حوادث وأعراض أخرى.

في عام 1971 بدأت كل من Judith Wallerstein (وهي عالمة اجتماعية) و Joon Berlin Kelly (وهي عالمة نفسية) بدراسة لمدة خمس سنوات عن 131 طفل من 60 عائلة مطلقة في ضواحي كاليفورنيا الشمالية. فوجدتا أن عدداً قليلاً جداً من هؤلاء الأطفال شعروا بالراحة بعد الطلاق، حتى في الحالات التي كان فيها صراع واضح بين الوالدين. وإن الأطفال قبل سن المدرسة غالباً ما يؤكدون بأنهم كانوا السبب في الطلاق, فهم خائفون، مرتبكون، حزينون ومهتاجون، يائسون وهم أيضاً يحاولون إنكار الإنفصال، وفي الوقت نفسه يكونون عدائيين في تصرفاتهم.

أما أطفال المدارس الأولى (6 - 8 سنوات) فيظهرون أكثر معاني الحزن، وهؤلاء بشكل خاص أكثر من غيرهم يظهرون توقاً شديداً خاصاً نحو الرغبة برؤية الأب، وأساهم يتشابه كثيراً مع أسى آبائهم، وهم يظهرون صراعات على الحقوق أكثر بكثير من أطفال قبل المدرسة.

في حين الأكبر سناً (9 - 12 سنة) فإنهم قادرون على التعامل بشكل فعال أكثر لإخفاء كآبتهم، ولكنهم يظلون يشعرون بالنبذ والمهانة, والهجر والوحدة، والذي يميز هذا الصنف بشكل خاص عن الأطفال السابقين هو وجود غضب واع عميق يقود غالباً إلى تخطيط مع والد ضد الوالد الآخر.

أما المراهقون (13 - 18سنة) فهم قادرون على التعامل مع الطلاق بصورة أكثر واقعية من كل فئات الأعمار الأخرى، لكن العديد منهم يظل يشعر بالحرمان من الموقف الصحيح والدعم الوالدي اللازم لهم للنمو وتحقيق الاستقلال.

وجدت **والرشتاين وكيلي** Judith Wallerstein و Joon Berlin Kelly في النهاية أنه في كل فئات الأعمار هناك رغبة مستمرة برؤية الوالدين وقد عاد اتحادهما، وأن يحل هذا الوئام مكان الانفصال القائم.

وفي هذه المتابعة لخمس سنوات للعائلات الستين، تعجبت كلتا العالمتان **والرشتاين وكيلي** Judith Wallerstein و Joon Berlin Kelly لشدة وطول أمر الاضطرابات, وقد وجدتا أن 31% من الآباء و42% من

الأمهات لم يصلوا بعد إلى ثبات نفسي أو اجتماعي، وأن 37% من الأطفال والمراهقين لا يزالون مكتئبين خلال هذه السنوات بشكل متوسط إلى شديد.

لقد أظهر تقرير Census لعام 1982 أنه في عام 1970 كان 11% من كل العائلات التي لديها أطفال يربي الأطفال من قبل والد واحد، ولكن في عام 1982 ارتفعت هذه النسبة إلى 21%، وقد قدر أن 45% من كل الأطفال المولودين في أية سنة سيعيشون مع أحد والديهم فقط، في وقت ما من حياتهم قبل سن الـــ 18. والحقيقة أن الاحصاءات التي جرت مع مطلع الالفية الثالثة في أميركا عام 2002 تجاوزت هذه النسبة إلى مايقارب 52%.

وبالنسبة لهذه النظرة. فمن المهم أن نلاحظ أن الآبـــاء الـــذين يقومـــون بالوصاية على أولادهم، يزداد عددهم بناء على طلبهم, وأحياناً بناء على طلب الأمهات. وفي الحقيقة فعدد الأولاد الذين يعيشون مع آبائهم المطلقين قد ازداد كثيراً في السنوات الأخيرة. وكلا الزوجين ازداد عدد مطالبتهم بتحديد أوقـــات زيارات نظامية ومطولة بين الأولاد والأب. عندما تكون الأم هي الوصـــية، وذلك لاستفادة الأولاد من اللقاء المطول مع كلا الوالدين.

هناك توجه يعمل به في الغرب لتجنب الألم الناجم عـــن التنـــافس علـــى الوصاية في المحاكم، وأن يشعر الولد بنفسه ممزقاً شعورياً بـــين الأم والأب، فإن الوالدين أصبحا يهتمان بتناوب الوصاية في تلـــك البلـــدان، والمســـؤولية المتساوية في الاهتمام بالأولاد. فعلى سبيل المثال في عام 1983 اعتمدت 27 ولاية أمريكية قانون يبيح تناوب الوصاية، ومثل هذا الإجراء يعمـــل بشـــكل أفضل طبعاً عندما يعيش الوالدان في نفس المدينة وعلى علاقـــة جيـــدة بـــين بعضهما. ولكن قد يعاني الأولاد من الدخول في المحاكم عندما يسكن الوالدان في مدينتين مختلفتين، أو مع الوالدين المتخاصمين.

وهذا النمط من تناوب الوصاية في الغرب عموماً يقف كحاجز ضخم أمام بعض أنواع حالات الطلاق التي لا يريد فيها أيّ من الوالدين القيـــام بالوصاية على الأبناء. وفي حالات كثيرة في تلك البلاد تهجـــر المـــرأة أسرتها حتى دون انتظار الانفصال القانوني، وهناك أعداد متزايـــدة مـــن النساء المتزوجات اللواتي كنا نقرأ اعلانات كتبت عنهن ببســـاطة أنهـــن مفقودات. وفي العقود السابقة كانت هذه الأمور تحدث مع الآباء. وإذ لـــم يكن هناك أحد ليهتم بهؤلاء الأبناء فيصبحون مسؤولين من قبل الولايـــة، ويوضعون في مآوي الأيتام أو بيوت الاحتضان. وهذه المآسي الإنســـانية التي تنجم عن انعدام المسؤولية الوالدية تحدث بكثرة لا يستهان بها فـــي الدول الغربية، وقد يكون Rabbi Grollman محقاً عندما قال أن الطـــلاق ربما يكون أسوأ من الموت فيؤكد: "مع نهاية الألم ، لقد مضى... أما مع الطلاق لم يمضي شيء".

أما في البلاد العربية والإسلامية، فالقوانين المعمول فيها في موضوع الوصاية على الأبناء مستمدة بشكل رئيس من الشريعة الإســـلامية، وان تفاوت تطبيقها من بلد لأخر نتيجة الاجتهادات القانونيـــة أو الشـــرعية أو غيرها في هذا المجال.

6 – تشتـــــت العائلـــــة

يعتقد Urip Bronfenbrenner أستاذ الدراسات العائلية في جامعة كورنل، إن التشتت المتطور الذي ازداد في العائلة الأمريكية في العقود الأخيرة هو عامل كبير في درجة العزلة والغربة بين الشباب والراشدين في مجتمـــع أميركا اليوم.

وإن الطلاق له دور في التشتت بشكل أكيد، وكذلك التمدّن، وكثرة الحركة وابتعاد مناطق العمل عن الإقامة، ومما ينجم عنه وجود ساعات طويلة تصرف على الطرقات، وتضيق العائلة الواسعة، والارتفاع السريع في معدل عمل الوالدات.

وإن النسبة المئوية للعاملات خارج البيت في أميركا هو أكثر بكثير منه في عام 1955، وكما أوضح **برونفينيرتر** أن الازدياد الأكبر حدث لأمهات الأطفال قبل سن المدرسة، وفي عام 1980 كان 43% من الأمهات المتزوجات واللواتي لديهن أولاد تحت الست سنوات يعملن، وكان عدد الأطفال لهذه الأمهات سبعة ملايين طفل في الولايات المتحدة الأمريكية، في حين كانت متوفرة أماكن لرعاية 1.6 مليون طفل فقط.

ويجب أن يلاحظ أيضاً أن الاقتصاد المتضخم الذي بدأ يغلب منذ السنوات الأخيرة من السبعينات من القرن الماضي هو سبب الأكبر لعمل الزوجين، فقد أجبر كثيراً من النساء المنزليات بمغادرة المنزل من أجل العمل، في عام 1980 كانت 51 % من الأمريكيات يعملن خارج المنزل فتفوق عدد النساء العاملات على المنزليات بذلك لأول مرة في تاريخ أمريكا، وفي نهاية عام 2000 أصبحت هذه النسبة أعلى من 69.8 %.

أما الإحصائيات المتعلقة بالصحة العقلية للأطفال والمراهقين في الولايات المتحدة الأمريكية فهي مرعبة، إذ إن معدل الانتحار بين الأطفال بعمر 10 إلى 14 عاماً قد ازداد قرابة الثلاث مرات ونصف، عنه قبل 40 سنة، ومعدل الانتحار بأعمار المراهقين بين 15 و**19** عاماً ازدياد أكثر من 4 مرات، وإن الجرائم العنيفة من قبل الأطفال تزداد بسرعة كبيرة، ومعدل جرائم السطو المسلح والاغتصاب وعموم الجرائم بين المراهقين قد تضاعف مرتين خلال العشر سنوات الماضية، وتضاعف قرابة الخمس مرات خلال الثلاثين ســـنة الماضية. وهناك ازدياد مرافق في الهروب من المدرسة، وإدخال الكحول والعقاقير والمخدرات إلى المدارس، والسرقات في حرمات المدارس، والاعتداءات على الأساتذة.

وإذا ما استمرت الحالة الحالية فقد قدر أن واحداً من كل تسعة شباب في أميركا سيظهر في المحاكم قبل عمر **18** سنة!.. وسأتحدث لاحقاً عن ظاهرة تستدعي التوقف عندها وهي ارتفاع أرقام حالات الأطفال المساء إليهم، وكما أوضح **برونفينيرير** أيضاً: "إن الإساءات الكبيرة للأطفال تحدث في عائلات الوالد الواحد، والسبب يعود إلى الأم نفسها، وهي حقيقة تعكس تشتت الحالة التي تعاني منها بعض النساء الشابات اليوم. ومن الواضح أن الوالدية، وبشكل خاص الأمومة لم تعد مضبوطة بنفس الأحكام – كما كانت عليه سابقاً – خاصة في المجتمع الأميركي المتغير بسرعة مدهشة.

فماذا يحمل المستقبل؟.

بناء على النظرة الواضح من خلالها هوة واتساع وقسوة الخلل الزواجي، فإن الموجودات الغربية ليست بمعدلات الطلاق المتزايدة، ولكن باستمرار وإعادة اختيار الزواج كإجراء أساس لأغلبية الراشدين في أميركا. والكرب الزواجي قد ينبع من طيف واسع من الأسباب التي تشمل العوامل داخل النفسية وبين الأشخاص.

بالإضافة لذلك اللافت للنظر في السنوات القليلة الماضية في الولايات المتحدة الأمريكية على أن الضغوط الاجتماعية والثقافية قد قوّت الطريقة التي يختبر بها الزواج أثناء المرحلة التطورية للمراهقين والشباب الصغار، ولهذا فالزواج عندهم أصبح وسيلة أساسة في "البحث الوبائي المالي عن النفس"..

على كل، كل هذه المعلومات تحتاج لزمن ودراسة دقيقة وعميقة أكثر حتى تفهم بشكل أفضل، وربما يكون العائد مضاعفاً. وإن فكرة أكثر واقعية عن ماذا يتوقع أن تقدمه العلاقة الزوجية، وقبول أوسع لفكرة العلاقة المتســـاوية بحق، يمكن أن تغني بالفعل النمو والتطور الفردي لكلا الزوجين.

7 – الأســـرة ذات الوالــــد الوحيـــــد

يميل الكثير من الباحثين للتفكير في ظاهرة الأسرة ذات الوالد الوحيد على أنها شكل معاصر أخير، مختلف لحياة العائلة خاصة في أوربا وأميركا.

لذلك يدهشنا أن نعلم بأنه بين عام 1900 - 1910 عانى كثير من الأطفال من تمزّق الزواج في العائلة، هؤلاء الأطفال نسبتهم أعلى من الذين عانوا بين عام 1950 - 1960. كان السبب الشائع لتمزّق الزواج في العقد الأول من هذا القرن هو موت أحد الوالدين، وفي الوطن العربي كان السبب الشائع لتمزق الزواج في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرون هو الموت بسبب الحروب وفي الثلاثينات من القرن المنصرم كان السبب في كافة أنحاء العالم هو تجوال الآباء وبحثهم عن العمل مخلفين غالباً العائلة خلفهم بعد ذلك في الأربعينات من القرن المنصرم أُخِذَ الآباء للقتال في الحرب العالمية الثانية، أما الآن في الغرب عموماً فنرى الآباء يتركون العائلة بشكل متزايد، لكن بسبب الانفصال بين الزوجين والطلاق.

وللدقة أقول أن 20 % تقريباً من كل الأطفال تحت سن 18 سنة يعيشون مع أحد الوالدين فقط في الولايات المتحدة الأميركية على سبيل المثال، ونصف هؤلاء الأطفال على الأقل قد عانوا من مشكلة طلاق بين والديهم. وفي الـــ 25 - 30 سنة الأخيرة قام الكثيرون بالدراسة والتأليف حول تجربة كون الفرد والداً وحيداً، ومعظمها كانت تشير للمرأة، لأن 90 % من بيوت الأسر وحيدة الوالد تدير شؤونها الأم عادة. وفي الماضي كانت المحاكم كلها تقريباً تمنح الوصاية للأم في العالم الغربي. وأما مؤخراً فقد بدأ الآباء يسعون للوصاية على الأولاد بصورة متزايدة في الغرب، وقد تضاعف عدد الأسر التي يديرها الأب بمفرده مرتين من 1970 - 1981، وأكثر من ثلاث مرات في عام 2000، ومن المحتمل أن يستمر هذا بالزيادة لأن كثيراً من الدول الأوربية والولايات في أميركا تسنّ قوانين الوصاية المشتركة بني الأم والأب. وهذه الظاهرة تشير إلى أن المجتمع يغير وجهة نظره القاسية حول كون الأم فقط هي المربية القادرة والمؤلهة.

أما في العالم العربي والدول التي تعمل بالقوانين المستوحات من الشريعة الاسلامية فحق الوصاية هو للأب عادة ولا يمكن للأم أن تكون وصية على أطفالها الاّ في حالات نادرة جداً، أما الحضانة فهي للأم حتى سن معين (يختلف هذا السن من بلد إلى آخر وبعض الدول تعتبر فترة الحضانة هي تسع سنوات للطفل وأحدى عشر سنة للطفلة) مع مراعات مشاهدة الأب لهم برعاية قانونية، وبعد هذا السن تُسلم الأم الأطفال للأب أيضاً مع مراعات مشاهدتها لهم بشكل يبيحه القانون أيضاً.

دُرست المشاكل التي تنشأ حول الوالدية الوحيدة من قبل Schlesinger Ilgenftitz - ووجدا المشاكل التالية:

(صعوبات تتعلق بتربية الأولاد، الاهتمامات الجنسية، العداء تجاه الرجال، الخوف أن يصبحن وحيدات، تردّد وحيرة في إعادة بناء علاقات اجتماعية، صعوبات مالية، وفقدان احترام الذات مترافق مع إحساس بالعار والإخفاق،...).

وإن مشكلة دخل الأسرة له تأثير كبير فقد وجد هبوط حقيقي وجوهري في الدخل في أثناء الطلاق، وتبيّن أن 25 % من المطلقات أو المنفصلات أو الوحيدات يحتجن لتلقي دعماً من أجل أطفالهنَّ.

ولقد تبين من دراسات Hethering, Cox, and Cox أن افراد العائلة ذات الوالد الوحيد أقل تنظيماً وأكثر قلقاً وغضباً ورفضاً من قبل الغير وأقل كفاءة من ذات الوالدين، ووجدا أيضاً تناقصاً في التنظيم الوالدي وفقدان السيطرة الوالدية على الأبناء. إلا أن دراسات قليلة في أميركا وجدت الوالدات الوحيدات متفوقات مسـيطرات وذوات نمو عاطفي جيد، وأن الآباء الوحيدين يشعرون بقدرات ودوافع إيجابية عندما يكونوا وحيدين. ولكن تبين أن هؤلاء النساء والرجال كانوا أكبر سناً، جيدي الثقافة ومتزوجين لفترة أطول، وقد تربوا هم أنفسهم في ظلّ والدين صحيحين، وإن تمثلهم مع والدين قديرين كان أحد العوامل التي أدت لحصولهم على الوصاية على أطفالهم.

8 – مهمـــــة إعـــــادة استقـــــرار العائلـــــة

ليس من المستغرب لأي شخص سواء أكان باحثاً أم شخصاً عادياً أن يعرف أن السنة الأولى التي تلي الطلاق هي الأكثر صعوبة بالنسبة لكل أفراد الأسرة. ولننظر في بعض هذه المشكلات الرئيسة في هذه العملية:

إحدى هذه المشكلات هي استمرار الرباط الزوجي، فالمتوقع من الزواج هو أن تتأسس علاقة قوية حميمة شاملة لكل شيء. لذلك فهذا الرباط المشترك من العادات والتصرفات والتجارب لن يمحى بسهولة، وهذا الرباط المشترك يجذب للعودة إلى الوراء إلى وضع ما قبل الانفصال، وإن هذا السلوك غير مرتبط بالحب أو الاحترام أو الإعجاب الذي يكنّه كل شريك للآخر، بل هو الخوف الشديد من الوحدة، لذلك نادراً ما تكون تصرفات الأفراد في هذه المرحلة عقلانية، وكثيراً ما يتصل الشريك بشريكه تلفونياً لمناقشته بأمر الانفصال.

وقد يصل بالأشخاص غير المتزنين لمحاولة الانتحار وإحداث كارثة أحياناً. وهذه المحاولات للتمسك والتعلق بالشخص المنفصل شيء طبيعي، لأن هناك خوف شديد من الوحدة يعاني منه معظم الناس في انفصالهم الأول.

وعندما يحدث الانفصال، وتشقّ الحقيقة طريقها إلى مستوى الإدراك، يبدأ حدوث مجموعة استجابات:

1. الميل للتفكير حول الشخص المفقود، مع تــذكر الأيـــام معـــه، والنزاعات والنقاشات وما حدث من أخطاء في العلاقة.
2. الحاجة لتحقيق اتصال مع هذا الشخص المفقود باختلاف حجج وهمية، مثل ذلك أن هناك عطل في الحمّام أو المطـــبخ أو الكهربـــاء وتتصل لتسأل عن عنوان السمكري أو الكهربائي.
3. الغضب من الشخص المنفصل، وبالنسبة للأطفال، الغضب على الوالدين كليهما.
4. الشعر بالذنب وإلقاء سبب الانفصال على الذات "ربما كان خطأ أن أفعل هذا، ربما لم يكن عليّ أن أتمســك برأيي".
5. ظهور "تفاعل الإنذار Alorm Reaction" أو فرط الحساسية تجـــاه الرغبة في عودة الشخص المنفصل "فإذا رنّ الهاتف هل هو الذي يتصل".
6. استمرار حدوث تخيلات مثل "ربما في المستقبل سنعود لبعضنا، أو لســنا مسؤولون عن حدوث هذا لم يكن خطأنا". والأطفال خاصة يكــون عندهم تخيلات شديدة حل إمكانية عودة الوالدين لبعضهما مستقبلاً.

وعندما تزول مرحلة الكرب الشديد والتي قد تستمر لمدة سنتين تبدأ مرحلة الانعزال الذي يشبه الاستيقاظ من نوم عميق، بتذكر الأصدقاء والأطفال والعالم المحيط، وتخفت مشاعر الغضب وتعود مشاعر العطف والرقة للظهور، وتعود الحياة لطبيعتها الروتينية السابقة، وهذا كله يسبب تناقضاً لما حدث.

ثم تعود الذكريات الجميلة إلى الذاكرة والخيال، واللحظات السعيدة التي حدثت قبل الانفصال، فقد تظهر تخيلات حول نهاية أسبوع سعيدة أو يوم عطلة تقضى مع الزوج، أو ترتيب موعد غداء معه، وقد يظهر ضد التناقض على شكل اهتمام بارتباطات الزواج بعد الانفصال، وحدوث دفعة من الغضب إذا أحدث علاقة جديدة.

وكثيراً ما يعبر عن هذا التناقض بطريقة أكثر مباشرة عن طريق معاملات الطلاق، وتسوية بعض الأمور التي طالت ولم تجد حلاً.

وقد يعاني الأطفال أيضاً من هذه المشاعر المتناقضة عندما تبدأ حياتهم بالاستقرار، فهم يعرفون أن حياتهم ربما أصبحت أكثر استقراراً وراحة من السابق، ولكن بالمقابل يهتمون بالإبقاء على علاقة مع الوالد المنفصل، وقد شاهدنا كثيراً من القصص التي تبين أن الأولاد يحبون دائماً رؤية الوالد المنفصل، وإن كان ذلك بفترات متباعدة وبعد زمن طويل من الانفصال.

9 – بعـض القضايـــا الخاصـــــة المتعلقـــة بالوالــد الوحيــد والأولاد

1.9- التأديـــــــــب

إن تأديب الطفل ليكون ذو خلق جيد هو أمر ليس باليسير إن لم يكن صعباً، سواء عند وجود والد وحيد أو عند وجود الوالدين.

ورغم وجود صراعات ونزاعات حول مواقف تربية بين الوالدين أحياناً إن لم أقل غالباً، فإن الطاقة المتطلبة من قبل والد وحيد ليكن قادراً على إنشاء وتعزيز الخلق الجيد عند أطفاله هو أمر شديد الصعوبة.

فالوالد الوحيد لا يستطيع أن يقول لابنه: "اذهب واسأل والدك الثاني" وكذلك لا يوجد من يمتص الغضب الناشئ بين أحد الوالدين والطفل حول موقف تربوي معيّن، هذا الامتصاص الذي يقوم به عادة الوالد الثاني.

إذ أن الطفل في العائلة ذات الوالد الوحيد لا يملك الفكرة الوهمية التي تريحه عادة: "إن أبي يحبني في جميع الأحوال". عندما تكون الأم هي الظالمة مثلاً بنظر الطفل و العكس بالعكس.

إن هذا الامتصاص للغضب هام أيضاً للوالد الآخر، خاصة إذا عرفنا أننا كأهل قد نقع من فترة لأخرى في فخ صراعات مراحل تطورنا النفسي السابقة، والتي تلعب دوراً في طريقة تنشئتنا لأطفالنا. وإن الميل ليكون الوالد شديد التساهل أو شديد الضبط لأولاده هي أمور صعبة بغياب الوالد الآخر.

وكذلك فإن تأديب الأطفال وإنشاء خلق جيد عندهم هو أمر صعب بالنسبة للوالد الآخر الذي لا يراهم سوى لفترة محدودة.

2.9 – انتحــال ادوار معترضــة اجتماعيــاً لأشخـــاص آخريــن

الوالد الوحيد يصبح عليه مهمة شاقة في انتحال دور الوالد الآخر. فبالنسبة للمرأة مثلاً، عليها أ ن تقوم بدور الأب، لكي تضبط المنزل وتقوّم سلوك الأولاد، وبما أن الأم غالباً ما تتمنى أن تكون هي مصدر الدفء والحنان والرعاية للأولاد، فهذا يخلق مشاكل كبيرة عاطفية بالنسبة للأم، وبالنسبة للأولاد وأيضاً، وكثيراً ما يقول الأبناء لأمهم حينئذٍ: "أمي، إنك تبدين كأب وليس كأم".

خاصة بالنسبة للأطفال الصغار، فإن أدوار الأب والأم تصبح غائمة وغير واضحة في العائلة ذات الوالد الوحيد، رغم حقيقة كوننا نعيش في عصر يسهل تبادل المهمات والأدوار فيه.

3.9 – تعزيــــــز هويـــــــة الأطفــــــال والأهـــــل

إن الطفل في العائلات المختلفة بين الجنسين، بين والده ووالدته. وفي كثير من الأحيان يكون التمثل أكثر عمقاً من مجرّد أن الذكر يفعل هـــذا، والأنثى تفعل هذا، وإن الطفل بحاجة إلى ما يمكـــن أن نـــدعوه المرجـــع الشخصي Personal Reference، وهذا يعني أن يعرف أن أبي يحبّ هذا ولا يحبّ ذاك ويفعل هذا ولا يفعل ذاك، بينما أمي تحبّ ذاك لا تحبّ هذا، تفعل ذاك لا تفعل هذا، وهذه مشكلة كبيرة لأن الطفل، خاصة في النصف الثاني من العقد الأول، عليه تحديد الأدوار والهوية الجنسية، فعدم رؤيـــة ماذا يفعل الجنسان المختلفان سيخلط الأمور عليه.

وأذكر طبيبة من زملائي في الدراسة الجامعية، اتصلت بي تأخذ رأيي بكيفية تدبير التعامل مع طفلها، وكانت قد انفصلت عن زوجها وحـــدثتني عن موقف مع طفلها قائلة: (سألني ابني ذات مرة عندما كنت أضع أحمر الشفاه والزينة على وجهي،... هل سأصبح فتـــاة عنـــدما أصـــبح فـــي السادسة".. وعندما استفسرت منه عن الأمر، لم يعرف الجواب وارتبـــك فعندها أفهمته أن الصبيان لا تتاح لهم الفرصة ليعرفوا كيف يتصرف الأب عندما يستعد للخروج، فكل ما يفعله هو حلاقة ذقنه وتمشيط شعره وتنسيق ربطة عنقه. وأحسست بصعوبة أن يتمثل هذا...).

هل يجب أن يكون الوالد الوحيد رجلاً أم امرأة خارقة؟. فهل يجب مـــثلاً أن تتعلم الوالدة كرة القدم أو أن تكون شرطية،...الخ؟. وهل يجب على الوالـــد أن يتعلم الطبخ والجلي وغسل الملابس وكيها وحياكة ستائر المنزل...الخ؟.

فكل والد وحيد يشعر بالذنب أو بالخوف، لأن بعض الفعاليات لن تجـــري كما كانت تجري سابقاً قبل الانفصال. وربما كان الأفضل والأحسن للأطفـــال أن يعرف الوالد حدوده إمكانياته فتقول الأم مثلاً: "أنا لا أحبّ أن ألعب كـــرة القدم، ولكن لأخذك مثلاً عند خالك كي يلعب معك" أو "لا أستطيع أن أصـــنع لك الحلويات، لنذهب ونشتريها من الخارج" فمثل هذه الأمور تساعد الطفـــل على تمثل شخصيته، وأن تمنحه شعوراً واقعياً لإمكانياته.

4.9 - فائدة الدعم الاجتماعي

يمكن لهذه الفائدة أن تحدد بمهمتين:

أولاً: تأمين مصادر دخل مادية في حال وجود ضعف وارد مادي، وعـــدم إمكانية الوالد الوحيد تأمين مصدر مالي زائد عن هذا الذي يستطيعه.

وثانيا: تأمين علاقات اجتماعية مفتوحة مع أهل وأطفال من عـــائلات أخرى ذات والد وحيد.

ويلاحظ أن الأطفال لهم دور كبير في هـــذا، فهـــم الـــذين يســـعون للتعارف على الأطفال الآخرين، ومهمة فسح مجالات تعارف بين أهلهـــم المطلقين، لذلك نجد أن المطلق الذي ليس عنده أولاد، يجد الـــدخول فـــي علاقات اجتماعية أصعب من المطلق الذي عنده أولاد.

10 - ملاحظـــــــــات هامـــــــــة

إن الوقوع في الحب مجددا لا يمثل أمراً بسيطاً هنا كما هو الحال عند الشباب والفتيات، وعندما تتم الاتصالات الهاتفية والمغازلة على مـــرأى ومسمع الأطفال فإن الأمر يزداد تعقيداً.

وإن موضوع إقامة علاقة عاطفية أوجنسية عقـــب الانفصـــال أمـــر يستدعي التفكير العميق، والإحساس بشكل خاص بوجود الأطفال.

لذلك فالشخص الجديد القادم الذي سيحضره الوالد أو الوالدة كشـــريك لحياته، هو شخص لا يعرف عنه الطفل شيئاً، وسيراه على علاقة مع أبيه أو أمه، ولا يفهم معنى هذه العلاقة وطبيعتها، سيقوم بطرح أسئلة عديـــدة شعورياً أو لا شعورياً: "كم سيبقى هذا الشخص معنا ؟ هل يجب أن أبذل جهدي للتعرف عليه؟ هل سيبذل هذا الشخص جهده للتعرف عليَّ؟. هـــل سيتحكم هذا الشخص بعواطف أمي؟. ماذا سيكن ردّ فعله إذا تصرفت معه بشكل شقي، أو على العكس بطريقة ودية؟ بأية طريقة ســـتتغير حيـــاتي؟ وهل سأتمكن من رؤية والدي المنفصل ؟. ".

قد يتدخل الأولاد بحد ذاتهم فيسألون " أمي هل ستتزوجين منـــه؟ إن الرجل كذا ظريف ولطيف لماذا لا تتزوجين منه؟.". فعندها لا بـــد مـــن التكلم معهم عن طبيعة العلاقة بين الرجـــل والمـــرأة وفـــق عمـــرهم أو الاستعانة بالأخصائي، لتوضيح مفهوم الزواج وخاصة موضوع مشاركة الحياة، ومبادلتهم الأفكار والمفاهيم حول طبيعة هذه العلاقة.